الانتحاريون

محمد بن عبداللطيف آل شيخ

حب الحياة جبلة يشترك فيها الإنسان والحيوان معاً. كما أن حب الحياة هو الأس الأول الذي تقوم عليه الحضارات منذ أن عرف الإنسان الحضارات، وعندما تصبح الحياة بلا معنى أو قيمة يصبح (التعلق) بالموت مهوى أفئدة المحبطين الذين هم في واقع الأمر (مرضى نفسيون)؛ لذلك حرّم الإسلام (الانتحار)، لأن حياة الإنسان ليست ملكه، وبالتالي لا يجوز له التحكم بها.

والانتحار ظاهرة (انهزام) وإن بدت في أعين بعض البسطاء السذج، وكأنها دليل (شجاعة) أن تعجز عن مواجهة الواقع، وتستسلم للإحباط وتنكسر أمام الفشل، فإن أسهل الطرق للهروب من المواجهة هو (الانتحار) وإيذاء الآخر (المنتصر) كما يفعل الانتحاريون الصحويون.

وقد عرفت أمم أخرى ظاهرة الانتحار، في العصر الحاضر ثوار التاميل في سيرلانكا هم أكثر من (فجروا) أنفسهم في عمليات إرهابية من حيث العدد، كما أن طياري (الكامكازي) اليابانيين بعد أن شعروا ب(هزيمتهم) قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية لجؤوا إلى (الانتحار) بتفجير طائراتهم في البوارج الأمريكية.

وقد أجريت الكثير من البحوث والدراسات (النفسية) المتخصصة لدراسة هذه الظاهرة في محاولة لرصد أسبابها وبواعثها وتفكيك قناعات من يُقدمُ عليها، وكيف تخلص من غريزة (حب الحياة) وأقدم على الانتحار.

أغلب الدراسات التي بحثت في هذا الشأن تميل إلى أن الباعث (الأهم) ليس (فقط) التطرف في الإيمان الديني، وبالتالي البحث عن (التطهر) كما يتصور البعض، أو الإيمان بقضية ما فيضحي بنفسه من أجلها، قد تكون هذه عوامل مساعدة أو مساندة، إنما (السبب) يعود في دافعه الرئيس إلى (مرض) نفسي عضال؛ يقول الدكتور روري أو كونور من جامعة ستراثكلايد والبروفيسور نول شيهي من جامعة كوينز في بلفاست: (إن هناك أدلة على وجود حالة من اليأس والضغوط النفسية التي لا تطاق عند تسعين في المائة من الذين يقدمون على الانتحار أو يفكرون فيه).

كما يؤكد أوزجان بشار في مقال له تحت عنوان: (طقوس وأسباب وأشكال الانتحار عبر التاريخ) أن المريض - المنتحر يفقد توازنه، وإحساسه بقيمة (الأنا) أو هو: (لا يستطيع أن يبلور طاقاته الدفاعية كي يتعامل مع الناس ومع واقعه)؛ إلى أن تصل دفاعاته إلى الفشل في الدفاع عن غريزة حب الحياة نفسها، فيقدم على (الموت) رغبة في الانسحاب السهل والمريح في الوقت ذاته من معاناته، ومن خلال رصد حالات الانتحار اتضح أن الشخص الذي يقدم على الانتحار يكون في الغالب: (لديه ضعف في الصور الخيالية، فالصحة النفسية السوية تتميز بأنها (تنفس) الطاقات المكبوتة والضغوطات عن طريق (الخيال) أو (التخيّل)، لذا فإن الشخص الذي يلجأ للانتحار يكون لديه ضمور وعدم قدرة على التنفيس، وضعف في الطاقة التخيلية).

كما لاحظ المختصون -أيضاً- أن من أهم ملامح التاريخ النفسي للشخص المنتحر: (أن شخصيته تتميز باللامسؤولية؛ إذ يبدو وكأنه (مراهق أبدي)، لا يمتلك الاستقرار العاطفي والنفسي، ويعيش في حالة فراغ مستمرة، ويشعر بشكل يتزايد مع مرور الوقت بالاكتئاب). وعادة: (ما يكون المنتحر عاجزا عن رؤية الحلول، مع العلم بأن الحل موجود دائماً، لكنه وصل إلى درجة لا يرى فيها غير الانتحار حلاً مناسباً). ويتحدث المتخصصون عما يسمونه ب(مثلث الكآبة) كقاعدة أساسية وضرورية لأي عمل انتحاري. في مثلث الكآبة هناك ثلاثة أضلاع: الضلع الأول: نظرة سوداء للذات. الضلع الثاني: نظرة قاتمة للمحيط. الضلع الثالث: نظرة متخوفة من المستقبل.

أما كيف استطاع الصحويون (الثوريون) توظيف هؤلاء المرضى النفسيين لتنفيذ مشاريعهم السياسية فهو ما سوف أتحدث عنه لاحقا.

وليس ثوار الصحوة هم أول من وظف (الضائقة النفسية) أو الخلل النفسي لجر الأتباع إلى الانتحار خدمة (طموحاتهم) السياسية؛ فقد عرف التاريخ كثيراً من الحالات المشابهة التي توظف الشعور بالهزيمة والانكسار والتضعضع النفسي والثقافي والشعور بتدهور (الأنا) العليا للانتقام من المنتصر المتفوق، ففي الأندلس نشأت في القرن الثالث الهجري - القرن التاسع الميلادي حركة مسيحية متطرفة (حركة الراهب أيولوخيو eologio)، إذ كان أتباعها يتعمدون الإساءة للإسلام، وسب رسول الإسلام، فيُقتلون من قبل السلطات المسلمة الحاكمة في ممارسة هي أشبه ما تكون (الانتحار الجماعي)؛ لذلك يمكن القول إن الظروف الموضوعية، وأهمها (الهزيمة) في هذا الخصوص، متى ما توافرت، فيجب أن ننتظر النتائج نفسها، لا فرق بين الراهب أيولوخيو وبن لادن في الموضوع، وإن اختلفا في الملة.

ورغم أن فقهاء كباراً بحجم الشيخ ابن باز، وكذلك الشيخ العثيمين - رحمهما الله - قد رفضا فكرة (الاستشهاد - الانتحار)، وفنّدا أدلتها؛ ورغم شهرتهما ومكانتهما الدينية في العالم الإسلامي وليس المحلي فحسب، إلا أن ذلك لم يقف عائقاً في مواجهة كثير من الفتاوى (الصحوية) التي أباحت العمليات الانتحارية، حتى أصبحت بالفعل وبال العصر.

ثوار الصحوة، ذوو التوجهات السياسية، هم كأي سياسيين آخرين (ميكافليون)، لا يهمهم سلامة (الوسيلة) وأخلاقيتها بقدر ما يهمهم (الغاية) وتحقيق الهدف النهائي؛ لذلك تلمسوا دليلاً يبيحون من خلاله الانتحار، فوجدوا في قصة (غلام أصحاب الأخدود) دليلاً يتكئون عليه، واشترطوا للإباحة أن يغلب على ظن (المجاهد) النكاية بالكفار وإرهابهم؛ (لينسف) هذا الدليل الهش، وهذا الشرط المفبرك، في النتيجة (حرمة) قتل النفس في الإسلام، ويدفع هؤلاء (المرضى النفسيين) نساء وذكوراً إلى الانتحار في سبيل مشروع (الأساطين) السياسي؛ واعتبروا أن من يقدم على هذه الفعلة (الشجاعة)، فإنه - بلا شك - سيحظى بما يحظى به الشهيد من الأجر والثواب.

وقد رد الاستدلال بقصة غلام أصحاب الأخدود الشيخ العثيمين وقال: (من فعل هذا مجتهداً، ظاناً أنه قربة إلى الله عز وجل، فنسأل الله تعالى أن لا يؤاخذه لأنه متأول جاهل)! ولأن المرض النفسي بلغ من بعض (الصبية) مبلغاً تهاوت فيه كل حصون الدفاع عن الذات، وتلاشت فيه غريزة حب الحياة، فإن مثل هذه الفتاوى وجدت (قبولاً) لدى هؤلاء الذين لم تعد تعني لهم الحياة إلا مزيداً من العذاب والمعاناة، في حين أنهم إذا أقدموا على قتل أنفسهم في (سبيل الله)، فالجنة والحور العين - كما يعدهم أساطينهم - في انتظارهم؛ فماذا ينتظرون؟

وفي تقديري أن فتوى (جواز) الانتحار ستبقى ذريعة فقهية سيجد فيها المتأسلمون السياسيون خير داعم لهم ولمشروعاتهم السياسية؛ وبالذات في زمن (انتكاساتهم)؛ ففي هذه الظروف لا بد من تسخير كل المفاهيم، بما فيها (النصوص) الدينية، وليّ أعناقها لمواجهة الانتكاسات؛ وغني عن القول إن انتكاسة ما يُسمى ب (الصحوة)؛ وانحراف مفاهيمها إلى الغلو، حقائق ملموسة لا ينكرها إلا جاهل أو أعمى، وما لجوء متطرفي كوادرها إلى الانتحار بعدما شعروا بالهزيمة والانكسار إلا دليل يثبت هذه الحقيقة.

بقي أن أقول إن (الثقافة الانتحارية) هي حلقة مكملة في (منظومة) التطرف والتشدد؛ فقد يعترض فقيه عرف بالإغراق في التشدد والتزمت - مثلاً - على إباحة قتل النفس، وقد يكون لآخر بعض التحفظات على ممارسات (غلاة الصحوة) نظرياً، غير أنه - دون أن يعي - قد يكون هو ذاته مسوغاً ومحرضاً ومشجعاً لثقافة الإرهاب من خلال تشدده في قضايا أخرى موازية، أو قل: مساندة لأصول هذه الثقافة ومرجعياتها. وغني عن القول إن ثقافة (التشدد والغلو) هي التي أباحت كل محذور، ووصلت بنا حداً من التطرف لم يعرفه هذا الدين في تاريخه.

كاتب سعودي

العائلة في مواجهة الإرهاب

ممدوح المهيني

إذا أردنا أن نتذكر أكثر الصور التي تعبر عن رؤيتنا عن العائلة فإن المشاهد التي نجتمع فيها على مائدة واحدة عندما كنا صغاراً تبدو أكثرها وضوحا. أيضا الشجار المستمر مع الأخوات والاضطهاد المستمر الذي يمارسه الأخ الأكبر وعندما كبرنا فإن فكرة العائلة تبدو واضحة في تجمعات الاستراحات وعلى الرغم من أن علاقة الأخوة أصبحت أكثر فتورا إلا أنك يمكن أن تشعر بها من خلال أولادهم.

فكرة العائلة هي أكثر مايميز مجتمعنا ولكننا للأسف نتعامل معها وكأنها لقاء للتسلية فقط ولتذكر الأوقات الحلوة وليس فقط لدعامة فكرية وأخلاقية. إن الحياة الفكرية التي مثلتها العائلة لنا كانت بسيطة جدا وهي التي تتمثل بإرغامنا على دخول المدرسة والذهاب إلى المسجد والابتعاد عن الرفقة السيئة.

على الرغم من أن هذه تبدو أشياء جيدة إلا أنها لايعني أنها كذلك فعلا.المدرسة لم تقدم لنا أي خدمات فكرية كبيرة وأغلبنا لايتذكر أي شيء منها (لا أتحدث عن المعلومات ولكن القيم) وفي المسجد كنا نصلي ونسمع فيه الكلام نفسه الذي نسمعه في المدرسة أما الرفقة السيئة (التي كانت تشمل حتى المدخنين) فقد كان هو النجاح الوحيد الذي حققه الأهالي عندما استطاعوا أن يشيطنوا هذا الفئة وكرهها كثير منا (على الرغم من بعض السلوك السيئ الذي اتبعناه) بدافع اقتناع أو خوف من الشرطة.

هذه الطريقة التربوية القديمة فرغت العائلة من القيم الفكرية الصلبة وبغض النظر عن المشاعر المتقلبة بين الأخوة فإن البيت ظل فارغا تماما من الأفكار التي تجمعهم باستثناء بعض الأحاديث الوعظية البسيطة التي قالها لهم والدهم بعد أن أمهم في إحدى الصلوات. رغم ذلك فإن هذا الأمر يبدو مفهوما تماما في مرحلة الآباء التقليدين الذين يقومون بأكثر المهمات الإنسانية صعوبة وهي التربية بالتقليد والتجربة الشخصية. ولكن هذه الطريقة استمرت مستخدمة أيضا آلياتها التبسيطية التي لو كانت مناسبة في مرحلة قديمة فإنها ستؤدي إلى كارثة في مرحلة أخرى وهذا ماحدث بالفعل.

المدرسة التي كانت مصدراً للعلم والمعرفة لم تعد كذلك وباتت تتحول في أحيان كثيرة إلى مصدر للجهل والجمود الفكري والمسجد الذي كان للصلاة تم استغلاله من جماعات كثيرة بحقن الأفكار المتشددة والرفقة السيئة لم تعد فقط المجموعة التي تجتمع في الزوايا المظلمة وتتنمر على المارين بل باتوا مجموعة من الشباب الطيبين والذين لايعلمون ابنك كيف يدخن سيجارة ولكن كيف يفجر نفسه ويقتل الآخرين.

بل الأوضاع الآن باتت أسوأ. تم قراءة الخطر الذي تمثله وسائل الإعلام بطريقة خاطئة عندما تم تضخيم فقط مشكلة الانحلال الأخلاقي الذين رأوه في كليبات الأغاني وتجاهلوا البرامج التي تساهم في تجهيل أطفالهم وتسطيحهم (على أي حال قد يوجد أطفال يشاهدون أغاني هيفاء وهبي ولكنهم لايعتبرونها قدوة بعكس الشخصيات التي جعلتهم الثقافة نموذجاً للإنسان الحقيقي الذين يقدمون لهم النصائح والمبادئ الخاطئة والمضرة) وكذلك مايحدث في الإنترنت.

الأجيال الجديدة من الآباء لايعتمدون أي طريقة جديدة بالتربية ومازالوا غير قادرين على تغيير المفاهيم القديمة البريئة بشأن المدرسة والمسجد والرفقة السيئة. نسمع كثيراً من القصص عن آباء يشعرون بأسى عميق وهم يعتقدون أنهم سبب رئيس في موت أولادهم أو سجنهم عندما قاموا بتربيتهم على الطريقة القديمة.

وما يؤسف فعلا أن الكثير من الآباء ما زال يدفع أولاده بسبب عدم إجرائه تغييرات على طريقته التربوية إلى الهلاك. إن الإرهاب كشف الطبيعة الفكرية الهشة داخل العائلة السعودية وهي التي جعلته قادرا على سحب عدد من أبنائها في صفه ورغم أن الناس الآن باتوا أكثر حذرا وتخوفا إلا أن هذا لايكفي لمواجهة أفكار التطرف. الشيء الوحيد القادر على ردعه الآن بنية فكرية عقلانية ومتسامحة يتم تكوينها بجهود شخصية داخل العائلة وتصبح هي صمام الأمان للأجيال الجديدة في العائلة. اعتمادكم على شيء آخر هي مقامرة بأرواح أبنائكم.

كاتب سعودي

إلى ابني، لا تطرف ولا إرهاب

هالة القحطاني

دخلت عليه وهي عابسة ووقفت أمامه في منتصف الغرفة ونظرت إليه نظرة أشعرته بالذنب، وقال: خير يا أمي: هل من شيء أغضبك؟، ردت قائلة: ما الذي أعادك مبكراً من المسجد؟ قال: لقد انتهت صلاة العصر فعدت.

قالت: وفضلت الجلوس أمام جهاز الكفار هذا على سماع تحديث الإمام!، قال: لا يا أمي، ولكن التحديث بعد صلاة العصر غير محبب لكثير من المصلين وينبغي علي أن أنهي البحث المطلوب مني تسليمه غداً في الجامعة. وقاطعته: الجامعة، وهذا الجهاز أهم من ربك وصلاتك؟، قال: ولكنني أنهيت صلاتي يا أمي على أكمل وجه، ما الذي أغضبك بالتحديد، قالت: جاراتي يباركن لأم مصعب استشهاد ولدها في العراق، كنت أزورها هذا الصباح فشعرت بريح الجنة في منزلهم وشعرت لوهلة بالغيرة منها، قال: أتغارين لوفاة ابنها، قالت له بغضب: نعم لأنه استشهد، أتعلم معنى الشهادة، وما الذي وراءها، جنة، وحور عين، وأشياء ولا في الأحلام، ألا تقرأ القرآن أنفع لك من هذه الكتب العقيمة، غادرت غرفته وهي تتمتم بكلمات لم يفهمها ولكنه كان يعرف بأنها كانت تدعو ربها بنيل الشهادة في سبيله.

قد تكون هذه صورة مبالغ فيها أو متخيلة، ولكن مثل هذه الأم يوجد كثيرات يختبئن بأفكارهن بيننا نحن معشر النساء، ينشرن فكرة الجهاد بين أطفالهن منذ الصغر، وتدور معارك في حلقاتهن أشد ضراوة من المعارك الكلامية التي يخوضها بعض الشباب الدعاة المتحمسين، وكل واحده تخيلت نفسها الخنساء قبل أن تفقد ابنا، نحن الآن في عصر مختلف انتهت فيه الغزوات والكرامات التي تكدست في عقول أبنائنا، لن تتكرر مرة ثانية غزوة بدر ولا أحد ولا الخندق، لا يوجد الآن صحابة، ومات خالد بن الوليد، ولا توجد خنساء أخرى في هذا الزمن الذي كثرت فيه الشبهات واللغط، ولا وجود لتلك الكرامات التي كرم الله بها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من المجاهدين وقت نشر الإسلام، نحن الآن في عام 2007، ولا أدري كيف شمت تلك الأم رائحة الجنة؟، لم أقرأ وصفا لنوع رائحة الجنة، ولا أدري من أين أتى العديد منهم ومنهن بذلك الوصف وكأنهم فعلا قد شموا رائحة الجنة من قبل ويستطيعون تمييز رائحتها.

الحرب في روسيا والعراق والشيشان وأفغانستان ليست كما الحرب في تلك الغزوات الواضحة التي درسناها والمعروف سببها، الحروب الآن فيها العديد من الأخطاء والفتن، أليست كثرة الحروب في الأرض من علامات الساعة؟ فإلى متى نمشي وراء الحلم بنيل الشهادة في غير محلها؟، ومع صعوبة السفر إلى البلدان التي تخوض حروبا مدمرة، هل الجهاد توجه إلى الداخل ليتم هكذا وسط الناس الآمنين، ومن قال إن تفجيرات الرياض أو الخبر فاز مرتكبوها بالجنة، حين ترى الأم التي تتمنى أن تلقب بالخنساء فلذة كبدها يسبح بدمائه في التلفزيون والشريط الإخباري يقول: «مقتل الإرهابي الذي نفذ التفجير»، ما هو الشعور الذي ستشعر به؟.

في مكان آخر وفي الوقت نفسه كانت هناك أم واعية خافت على أبنائها حين استشعرت بقرب الخطر ففكرت كيف تحميهم خاصة أنهم اقتربوا من سن المراهقة وبدأوا بتكوين أفكار خاصة بهم مستوحاة مما يتعلمونه في المدرسة، فجاء أحدهم مثلا ليقول: هذا حرام على أحد البرامج التي تبدأ بموسيقى في التلفزيون، وتارة أخرى هذه الملابس حرام، فراع ذلك الأم وأقلق منامها، جلست تفكر ماذا تفعل لحمايتهم،.

وبفطرة أي أم وجدت الحل هو في إبعادهم عن التطرف الفكري الذي غرر بالبعض من أبناء هذا البلد إلى الغلو وقادهم إلى الإرهاب- قالت: لا أريد أن أفقد أحد أبنائي يوما، ولا أريد أن أفاجأ بابني وهو يحدد ماذا أفعل، ويقول لي يا ماما هذا حرام وهذا حلال، لا أريد أن أفقد أطفالي بحجة حماية الدين والفوز بالجنة، أريد أن أربي أبنائي على الوسطية، لا أريد تركهم يخوضون تجربة عشوائية أساسها الخطاب الديني المتطرف الموجه للصغار المندفعين بطريقة غير مدروسة الأبعاد والنتائج حصدنا بعضها في المجتمع، كانت تريد أن يستقي أبناؤها العلم دون تجاوز حدود العلم والتدريس إلى الإفتاء بالحلال والحرام، العديد من الآباء يعتمدون على المدرسة فقط في زرع الأساسات وكأن كل شيء يأتي من المدرسة صحيح ولا تشوبه شائبة، والمصيبة أنها لا تخلو من الشوائب القديمة التي نأمل تحديثها بأسرع وقت، أحاطت تلك السيدة بأبنائها وحاولت صرف نظرهم عن تلك المواضيع بزرع حب الوطن بالفعل الهادف فأنشأت نادياً معنوياً أسمته (نادي الأصدقاء) جمعت فيه أصدقاء أبنائها المقربين وأسست لهم عدة أنشطة اجتماعية ورياضية وخيرية يقوم بها الأطفال بأنفسهم ويستمتعون بها، لاقت تلك النشاطات أثراً كبيراً على نفسية الأطفال الذين أصبحوا أكثر تفاعلا وحيوية وحماساً في عمل كل مشروع، من ضمنها مشروع تفطير صائم، زيارة جمعية (دسكا) لمتلازمة داون، زيارة مركز الحياة للتأهيل، قاموا بعمل مبيعات منزلية جمعوا فيها عشرة آلاف ريال، قاموا بالتبرع بها لمركز الحياة وجمعية دسكا، قاموا بطلاء حائط مشوه بالألفاظ البذيئة في حديقة الواحة، ومن نشاطاتهم الهادفة أيضا عمل مطويات ومنشورات عن النظافة وقاموا بتوزيعها على رواد الحديقة.

أليس هذا أجمل من زجهم في أماكن لا ندري ماذا يدور بها، أليس نشاط هؤلاء الصبية جميلاً، أليس ذلك أجمل من تلقينهم قضايا لا تقوى عقولهم على استيعابها في عصر أصبحت فيه بعض التقنيات مثل التلفزيون والهاتف والكمبيوتر محرمة من قبل البعض، والأولاد يسمعون من بعض زملاء الدراسة وبعض المدرسين المجتهدين بأن ذلك حرام، وحين تسأل الولد عن السبب يقول لك: ما أدري بس أمي قالت لي هذا حق كفار، لماذا لا تكتفي المدرسة بتعليم الأساسيات وما اتفق عليه من حلال وحرام.

استمرت تلك السيدة في تشجيع أطفالها على نشاطاتهم وهي تراقبهم عن كثب، ومن المضحك أنه حين تمت الإشارة لهذا النادي الصغير في إحدى المجلات قال الابن الأصغر لأمه (فشيلة يا ماما لقد أصبحنا مشهورين) فردت أمه قائلة: الحمد لله أنك أصبحت مشهورا بشيء يرفع الرأس وليس مخجلاً كالإرهاب.

وأنا بدوري أقول للسيدة الفاضلة (هدى الرشيد) لقد أسستِ أجمل شيء ممكن أن تفعليه لحماية أبنائك من التيارات التي لا ندري متى ستركد، وللشباب الصغار أقول لا بد أن ترفعوا رؤوسكم اليوم وتفخروا بما حققتموه وعجز عنه الكبار.

تركتها وفي حال نفسي أمنية أن ألحق أبنائي بنادي الأصدقاء هذا، ولكن للأسف النادي في الرياض لذلك تمنيت أن يتقدم أحد المسؤولين الكبار في الدولة لدعم فكرة نادي الأصدقاء الذي تشرف عليه أمهات الأطفال أنفسهم من أجل حماية وتربية جيل جديد تحت أنظار أمهات يمتلكن ميزة الإحساس بقرب الخطر حين يقترب من أطفالهن، واعيات يقدن المركب بعيدا عن مصادر الزوابع التي عرضت العديد من السفن في أزمنة قريبة من الغرق، وتوصيل ذلك النشء إلى بر الأمان بعقول سليمة خالية من وهم رؤية الحور العين بعد نزع صمام الأمان من الحزام الناسف.

صحفية وكاتبة سعودية

مراجعة ثقافة التشدد

حمزة المزيني

ظلت "المناصحة" مقصورة على الموقوفين في السجون بتهمة اعتناق الفكر المتشدد. وهدفها تغيير قناعاتهم الناشئة عن بعض التأويلات لبعض النصوص الدينية التي يسوغون بها الأفكار التي يعتقدون والأعمال العنيفة التي ينفذون.

وتوحي بعض التقارير بنجاح هذه الحملة في إقناع بعض الموقوفين بخطأ تأويلاتهم وما يقومون به من أعمال العنف مما سمح بخروجهم من السجون لاستئناف حياتهم الطبيعية.

وهذه المناصحة مستمرة منذ أربع سنوات تقريبا. لكن ما يلفت النظر أن أعداد معتنقي الفكر المتشدد لا تزال تتزايد في مجتمعنا، على الرغم من الجهود الواضحة التي تُبذل في مكافحته. ويصل بعض معتنقي هذا الفكر إلى الطرف الأقصى فيخرج من المملكة للمشاركة في بعض الفتن الداخلية في بلدان متعددة بحجة "الجهاد" ونصرة المسلمين، ويُقتل أكثرهم في هجمات انتحارية ربما يكونون مرغمين عليها. ويقبع كثير منهم في سجون البلدان المختلفة مهددين بفترات سجن طويلة أو بما هو أسوأ.

وظل بعض منهم على مستوى أقل من العنف فلم يَخرج؛ لكن كثيرا من هؤلاء يفرِغون طاقاتهم الملتهبة في بعض أعمَال تصب في مسار العنف، وليس أقلها التشغيب على المناسبات الثقافية والاجتماعية واستخدام أيديهم في تغيير ما يرونه منكرا.

ولفت هذا التزايد في أعداد معتنقي هذا الفكر أنظار المسؤولين في وزارة الداخلية مما جعلهم يتحققون من أن الحد من هذا الفكر لا يتطلب "مناصحة" من وقع في الشَّرَك فقط؛ بل لابد من تجفيف المنابع الحاضنة التي تغذيه وتنميه وتنشره بين صغار السن خاصة.

وكان كثير من الكتّاب والباحثين السعوديين قد أشاروا منذ سنوات إلى بعض تلك المصادر. ومن المصادر التي خُصَّت بالإشارة المدارسُ وبعض النشاطات التي تقام في المساجد وبعض النشاطات في "المخيمات الصيفية"، واستغلال حلقات تحفيظ القرآن الكريم.

وتعرض هؤلاء الكتاب والباحثون إلى كثير من اللوم والتشنيع والتهديد ممن يدافعون - بحسن نية أو بسوئها - عن الممارسات الخطرة التي كانت تنشط في هذه البيئات.

لكن ما تفعله وزارة الداخلية ممثلة في "لجان المناصحة" الآن يشهد بصحة موقف أولئك الكتاب والباحثين الذين لم يكونوا يتحدثون من فراغ، بل من معرفة حقيقية بخطر ما كان يمارس من تلك النشاطات التي يحاول المدافعون عنها تبرئتها.

ومما يشهد بتحقق وزارة الداخلية من خطر تلك المصادر ما نشرتْه بعض الصحف عن قيام "لجان المناصحة" بنشاطات اجتماعية خارج السجون.

لكن كثافة تلك النشاطات تبرهن على أننا لا نزال نعاني من مشكلة التشدد الذي يمكن أن يفضي إلى العنف، إلا أنها تشير كذلك إلى أننا بدأنا نعترف بهذه المشكلة من غير تحفظ.

وأشار بعض "المناصِحين" إلى القصور في أداء بعض المسؤولين في مكافحة هذا الفكر. ومن ذلك ما قاله الدكتور عزام الشويعر في محاضرة بعنوان (أمور قد تخفى على المربين والمعلمين) "... أوضح من خلالها الدور الكبير والمهم للمعلم والمربي وذلك من خلال معايشته لحالات الموقوفين، بينت أهمية هذا الدور للمعلم، مستشهداً بكثير من القصص والروايات وأكد على أهمية التصدي لمثل هذه الأفكار والانحرافات الفكرية وإنكارها وعدم المجاملة على حساب الوطن وولاة الأمر والعلماء ومقدرات الوطن».

ويؤيد هذا ما أشرتُ إليه في مقال قبل سنوات بعنوان "دعاة لا معلمون" من تحوُّل بعض المعلمين والمعلمات عن واجباتهم التعليمية ليصيروا وعاظا لا همَّ لهم إلا الحديث عن "الجهاد"، والموت، وهو ما يدخل في مفهوم "المنهج الخفي" الذي يعني أن بعض المعلمين والمعلمات ينفِّذون منهجا موازيا للمنهج الذي تقره وزارة التربية والتعليم ينشرون من خلاله كثيرا من الأفكار المتطرفة، بل ربما يصل الأمر إلى دعوة الطلاب إلى الخروج "للجهاد"، ورفْع "الشباب" السعوديين المشاركين في الفتن الخارجية إلى مراتب "الرموز" التي تستولي على إعجاب الطلاب الصغار وتغريهم باتباع طريقهم.

ولمناصحة المعلمين والمعلمات هدفان: الأول أن يُقلعوا هم أنفسهم عن الفكر المتشدد، والثاني أن يتوقفوا عن النشاطات الموازية التي كانوا يمارسونها لغرس الأفكار المتشددة في طلابهم. ويمكن لهذا أن يقضي على مصدر مهم من مصادر نشر الأفكار المتشددة.

وشارك الدكتور ماجد المرسال بمحاضرة بعنوان (أمور قد تخفى على الخطباء والوعاظ) أشار فيها إلى "... أهمية أن يعي من يتصدر للخطابة أو الدعوة حال المتلقين، فنسبة كبيرة من المتلقين تتأثر بالخطاب المدعم بالآيات والنصوص بدون التفكير أحياناً بمضمونها أو مغزى الخطيب...».

ويشير هذا إلى مسؤولية بعض الخطباء عن نشر الأفكار المتشددة، أو عدم قيامهم بواجباتهم في مكافحتها.

وشارك الدكتور إبراهيم الميمن بمحاضرة بعنوان (رسالة إلى كل مسؤول)، بيَّن فيها"... خطورة هذه الأفكار على المجتمع وموضحاً أيضاً خطورة التقليل أو التبرير أو التساهل في هذه الانحرافات وأثرها على الوطن والدين وكذلك بين أثر التفاعل والتكامل بين أفراد المجتمع في معالجة ومحاربة الأفكار الهدامة، فالمسؤولية كبيرة ليس على رجل الأمن فحسب بل الأسرة والمدرسة والمسجد ورجال الدعوة وكل مسؤول».

وهذا النشاط المحمود مهم لأنه يتضمن اعترافا، طال انتظاره، بالمصادر الحقيقية التي تغذي هذا الفكر وترعاه. ومع ذلك فهناك بعض الملحوظات على المنطلقات التي ينطلق منها بعض المناصِحين التي ربما تعمل على عدم نجاح هذه المناصحات.

فعلى الرغم من تأكيد أكثر المناصِحين على الأسباب الداخلية الثقافية والدينية التي تنتج عنها هذه الأفكار، وهي التي بيَّن الدكتور سعيد الوادعي بعضها في قوله إن"... هناك أخطاء واضحة وقع بها شبابنا وسبب ذلك قلة العلم الشرعي وصغر السن وأخذ المعلومة من مصادر مجهولة وغير دقيقة.... و(أن) العديد من أسباب انحراف الشباب مصدرها الشاب نفسه أو الأسرة أو المدرسة أو الخطيب أو الواعظ،...."، إلا أن بعض المناصِحين لا يزالون يكررون الحجج القديمة التي تتمثل في إلقاء اللوم على المؤامرات الخارجية التي استغلت "شبابنا" وغررت بهم، واستغلتهم في مخططاتها. ومن ذلك ما قاله الدكتور محمد بازمول الذي تحدث عن مسؤولية "... الصهيونية العالمية (التي) تتربص بالإسلام"، وما نتج عن ذلك من حرب إعلامية شرسة ضد المسلمين (الرياض، 4/28 /1429هـ).

ومع أنه لا يمكن أن نأمل خيرا من الصهيونية، فهي في حالة حرب مع المسلمين منذ أكثر من مئة سنة، وهي حريصة على أن تعمل أي شيء يمكن أن يضر بالمسلمين، إلا أن السؤال الصعب الذي يجب أن نواجه به أنفسنا هو: لماذا يسهل وقوع "الشباب" السعوديين في شباك هذا الأخطبوط؟

وإلقاء اللوم على الآخرين سهل جدا، لكنه لا يحل مشكلاتنا، بل يمكن أن يعمي أبصارنا عن الطرق الصحيحة لعلاجها. أما الطريق الصحيح والأقرب لحل مشكلاتنا فهو الاعتراف بشجاعة بأن بعض جوانب ثقافتنا تدفع شبابنا للوقوع في هذه المشكلات، ومن أهمها: "... الشبهات التي يعاني منها الشباب مثل "التكفير" و"الولاء والبراء" وضوابط الجهاد والبيعة والطاعة لولي الأمر، والموالاة، وإخراج المشركين من جزيرة العرب..." التي أشار إليها مدير التوجيه والتوعية في وزارة الداخلية وعضو لجنة المناصحة الدكتور علي النفيسة (الحياة، 5/5 /2008م). وهذه مشكلات ثقافية ودينية داخلية بامتياز، ولا علاقة للعوامل الخارجية بها.

لكن صعوبة هذا الاعتراف تأتي من أنه يفرض علينا أن ندين أنفسنا أولا، وأن نقوم بجهد كبير لمراجعة ثقافتنا - العزيزة علينا - التي توجِّه نشاطاتنا وتعليمنا وخطب مساجدنا لكي ننتزع منها أسباب هذا التشدد الذي يقود إلى التطرف، وإلى العنف ضد الآخرين وضد النفس في نهاية المطاف. وهذه مهمة شاقة عمليا ومؤلمة نفسيا، لكن لا مفر من القيام بها إن أردنا العودة إلى سويتنا التي كنا نتمتع بها قبل استفحال هذا الفكر.

كاتب سعودي